الإعجاز السنني في القرآن الكريم

أ.د. محمد أمحزون
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس - المغرب

المقـ ـدمـة

جلا علاه سنن في هذا الكون يجريها على واقع المجتمعات البشرية وحركة سيرها وتغيرها وتبدلها، كما تجري القوانين الثابتة المطردة في عالم الطبيعة.

وهذا الأمر يؤكد لنا حقيقة بديهية وهي: أن هذا الكون بعالميه المتحرك والجامد، الإنسي والطبيعي، يسير وفق تدبير الحكيم العليم، الذي لم يخلق الخلق عبثا وسدى، وإنما لأجل غايات حكيمة بينها في الوحي المنزل للبشر من خلال الرسل، كما نراها في آفاق هذا الكون الفسيح.

ونحن المسلمين يحق لنا أن نفخر بأن السنن عندنا يقينية؛ لأنها ليست من وضع الإنسان، وإنما نستمدها من الوحي، من علم ا تعالى المطلق الذي لا يخطئ. وقد بسطها القرآن الكريم، وبينتها السنة الشريفة. والمطلوب منا هو السير في الأرض بالبصر والبصيرة لندركها ونفهمها ونعتبر بها: ﴿**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيـ ـ ـ ـف كان عـ ـ ـ ـ ـ ـاقبة المكذبين**﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ووجه الإعجاز في هذا الجانب: أن المفهوم القرآني للسنن الاجتماعية يعتبر فتحا عظيما للقرآن الكريم، لأنه أول كتاب عرفه الإنسان أكد على وجود علاقات وروابط بين الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، التي تعد في الحقيقة تعبيرا عن حكمة ا تعالى وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية والاجتماعية.

بينما كان الإنسان قديما يخضع للنظرة العفوية أو النظرية الخرافية الاستسلامية في تفسير الأحداث التاريخية وحركة المجتمع بوصفها كومة متراكمة من الأحداث والوقائع؛ فيفسرها تارة على أساس الصدفة، وتارة على أساس القضاء والقدر بدون إدراك مغزاها الحقيقي، وبدون التمييز بين أمر ا القدري

الكوني وأمره القدري الشرعي. كما أن التفسير اللاهوتي الكنسي للتاريخ والمجتمع يتناول الحادثة نفسها، ويربطها بإرادة ا سبحانه وتعالى قاطعا صلتها بقانون الأسباب.

وهكذا لأول مرة في التاريخي الإنساني، نبه القرآن الكريم العقل البشري إلى أن حركة أي مجتمع محكومة بسنن ثابتة وشاملة ومطردة.

على أن الغربيين المعاصرين وإن اكتشفوا كثيرا من السنن الطبيعية ووظفوها لعمارة الأرض في المجلات العسكرية والمدنية المختلفة. إلا أنهم ذهلوا عن السنن الاجتماعية والتاريخية، ولم يدركوا إلى الآن ولم يفهموا كيف تعمل هذه السنن في واقع المجتمعات البشرية؛ لأنهم قطعوا صلتهم بالوحي، مما جعلهم غير قادرين على فهم حقيقة النفس الإنسانية وطبيعتها ودروبها وتشعباتها ووسائل علاجها، ومن ثم لم يحالفهم النجاح في ضبط بنية العلاقات الإنسانية النفسية والمجتمعية في صيرورتها.

وبالتالي فمنهم من لم يؤمن أصلا بالسنن الربانية وأثرها في المجتمعات البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل، ومنهم من يخلط بين السنن الطبيعية والسنن الاجتماعية، ولا يعلم بأن الأولى مجالها الظواهر الكونية، والثانية مجالها المجتمعات الإنسانية.

يقول ألكسيس كاريل: "إن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي؛ لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط. لقد فتنهم جمال علوم الجماد... إنهم لم يدركوا أن أجسامهم ومشاعرهم تتعرض للقوانين الطبيعية (انظر الخلط بينها وبين القوانين الاجتماعية) وهي قوانين أكثر غموضا، وإن كانت تتساوى في الصلابة مع قوانين الدنيا (السنن الكونية)... بذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم"[١].

[1]- الإنسان ذلك ا هول، ص ١١.

أما علماء الإسلام فقد كانوا سباقين إلى الحديث عن السنن وأثرها الحاسم في حياة الأمم والدول، لكن لم يكتشفوها من تلقاء أنفسهم، وإنما استنبطوها من الوحي. ولهذا كان للتوجيهات القرآنية وتعاليمه الحكيمة أثر هام في تشكيل العقل المسلم الذي استطاع بفضل الكتاب والسنة إرساء قواعد البحث العلمي وأصول المنهج التجريبي، وبناء حضارة متناسقة مبدعة استفادت البشرية من عطائها في بناء صرح المدنية إلى حد بعيد.



الفصل الأول

تنبيه القرآن الكريم إلى صرامة السنن الاجتماعية واطرادها

لقد كان القرآن الكريم أول كتاب في تاريخ البشرية يشير إلى السنن الاجتماعية، فذكرها نصا في مثل قوله تعالى: ﴿**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وذكرها تارة مضافة إلى ا تباركت وتقدست أسماؤه في مثل قوله تعالى ﴿**سنة ا التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون**﴾ [غافر: ٨٥].

وذكرها تارة مضافة إلى أقوام في مثل قوله تعالى: ﴿**إلا أن تأتيهم سنة الأولين**﴾ [الكهف:٥٥].

ولم يذكرها ا جل ذكره أحيانا أخرى نصا، وإنما فهمت من النص دلالة وفحوى في مثل قوله تعالى: ﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون**﴾ [الأنعام: ١٠].

كما نبه جل ثناؤه إلى أن هذه السنن صارمة تتسم بالاطراد والشمول والثبات في مثل قوله تعالى: ﴿**فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة ا تبديلا، ولن تجد لسنة ا تحويلا**﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله عز من قائل: ﴿**سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا**﴾ [الإسراء: ٧٧].

ويعد هذا السبق القرآني في إرشاد الإنسان إلى وجود قوانين صارمة في المجالات الاجتماعية ذا مغزى في انتباه العلماء المسلمين في العصور الماضية إلى أثر السنن في المجتمعات والاعتبار بها.

يقول البيهقي: "لا توجد حادثة لم يحدث مثلها من قبل"[١]. ويقول ابن الأثير الجزري: "إنه لا يحدث أمر إلا تقدم هو أو نظيره"[١]. ويقول ابن تيمية:

---

[1]- السخاوي: الإعلان بالتوبيخ ن ذم التاريخ، ص. ٣٣.

"ومن هذا الباب، صارت قصص المتقدمين عبرة لنا. ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن"[٢].

وبصدد اطراد السنن ذكر ابن قيم الجوزية كلاما نفيسا جاء فيه: "... لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة والمعاني المعتبرة في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها"[٣].

فالأوصاف والعلل المؤثرة في الأحكام القدرية والشرعية ليست إلا السنن. فهي ليست عشوائية قائمة على أساس الصدفة، وإنما هي ذات طابع موضوعي، لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة. بل إن التأكيد على طابع الاطراد في السنة هو تأكيد على الطابع العلمي للقانون الاجتماعي، لأن أهم ما يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض هو: الاطراد والتتابع وعدم التخلف[٤].

ومن هاهنا أراد القرآن الكريم من خلال تأكيده على طابع الاطراد في السنن التاريخية والاجتماعية: ﴿**ولن تجد لسنة ا تبديلا**﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿**ولن تجد لسنة ا تحويلا**﴾ [فاطر: ٤٣] الجزم على الطابع الموضوعي لهذه السنن، بغية خلق شروع لدى الإنسان المسلم، يمكنه من تتبع أحداث التاريخ وحركة المجتمع في جريانها بصورة واعية بعيدا عن العشوائية والسذاجة والاستسلام والتفسير الخاطئ للقدر.

---

[1]- الكامل التاريخ، ج. ١، ص. ٨.
[2]- جامع الرسائل، ص. ٥٥.
[3]- إعلام ا وقع عن رب العا ، ج. ١، ص. ١٩٦.
[4]- مد باقر الصدر، السنن التار ية القرآن الكر ، ص. ٦٧.

ولهذا ينبغي معرفة السنن الإلهية وتدبرها والاستفادة منها وتوظيفها في بناء المجتمع المسلم وتربيته وتزكيته لقوله تعالى: ﴿**يريد ا ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم وا عليم حكيم**﴾ [النساء: ٢٦].

فمن خلال سنن ا تعالى في كتابه الكريم وسنة نبيه (ﷺ) نعي عوامل البقاء التي تحفظ المجتمع من معاول الهدم والانحلال، وتصونه من التفتت والانهيار، وتباعد بينه وبين الفناء المدمر، حين يصيب الخلل شبكة العلاقات الاجتماعية فيه، إذ إن التوازن الدقيق في وعي المجتمع بين الحقوق والواجبات يتأثر كما يتأثر توازن المركب على سطح الماء.

مع العلم بأن فقه سنن ا تعالى في المجتمع يولّد لدى الذين يتمتعون بالوعي إدراكا وشعورا بالخطر من أن يكون المركب الذي يسير به المجتمع يحتوي على نماذج لا تعرف سنة طفو الأجسام على الماء، فيسعون بحسنة نية أو سوء نية لخرق السفينة، كما ورد في الحديث الشريف(١).

فقد روي عن النعمان بن بشير (رضي ا عنه) أن النبي (ﷺ) قال: "مثل القائم على حدود ا والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذ استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذي من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"(٢).

ووجه الإعجاز في هذا الحديث أنه يكشف عن التوازن الدقيق في وعي المجتمع، والذي يتأثر كما يتأثر توازن المركب بحسب قانون الطفو. إن للمجتمع كذلك قانون -سنة- يترابط به ليحميه من الغرق.

1- جودت سعيد: حـ يغ وا ما بأنفسهم، ص. ٦٢.
2- أخرجه البخاري ا امع الصحيح، كتاب الشركة، باب ج. ٣، ص، ١١١.

ومن خلال السنن الواردة في كتاب ا وسنة رسول ا (ﷺ) نفهم أيضا التاريخ على حقيقته؛ فنعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم، ونعرف عوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف.

على أن هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي، والطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، فالإنسان إذا أتى الأمر واجتنب النهي ووقف عند حدود ا أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وخالفه وارتكب المنهي عنه ووقع في حدود ا أصاب السنة الربانية[١].

ومن هاهنا تأتي أهمية ربط بناء المجتمع بالاستقامة على منهج ا ، والعدل والتراحم، وبذل الجهد والعمل والتضحية، وفق سنن ا التي لا تحابي فردا على حساب فرد آخر، أو مجتمعا على حساب مجتمع آخر، كما في قوله تعالى: ﴿**إن ا لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد:١١]. وقوله تعالى: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزى به**﴾ [النساء: ١٢٣]، وقوله جل ثناؤه: ﴿**ومن يرد ثواب الدنيا نؤتيه منها**﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فالنتائج التي قد يتطلع إليها على وجه الأرض أكثر المؤمنين إيمانا وأشدهم ورعا وتقوى سوف يجنيها أكثر الكافرين كفرا وأشدهم فسقا وفجورا إذا وافق المقدمات الصحيحة المؤدية إليها، وربط الأسباب بمسبباتها، بينما ينتظرها المسلم الذي لم يفهم سنن ا تعالى في خلقه ارتكازا على إيمانه وحده واعتمادا على ورعه وتقواه، دون أن يطلبها من مقدماتها التي خلق ا عز وجل طريقا إليها، فأنى يستجاب له! [٢].

ومرجع ذلك إلى أن السنن الربانية في الحياة البشرية دقيقة كل الدقة، منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، لا تجامل ولا تحابي، ولا تتأثر بالأماني،

---

[1] - مد بن صامل السلمي: كيف نفسر التاريخ، لة البيان، عدد ٥٠، ص. ٩٨.

[2] - مد عبد ا ادي ا صري: أهل السنة وا ماعة: الانطلاقة الك ى، ص. ٢٥٨، (بتصرف).

وإنما بالأعمال المنظمة ذات التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى. وهي في دقتها وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية أو الطبيعية سواء بسواء.

على أن جميع السنن التي فطر ا تعالى عليها أمور الخلق –الطبيعية أو الاجتماعية أو التاريخية- قابلة للتراكم والإعادة –بإذن ا - كلما توافرت شروطها وانتفت موانعها التي تحول دون تحقيقها.

وإذا كانت كل سنة اجتماعية لا تتم إلا من خلال شروط ينبغي توافرها وموانع ينبغي انتفاؤها، فإن هذه الحقيقة العلمية يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا كلما أردنا أن نقوم بعمل من الأعمال أو نحقق هدفا من الأهداف.

إذ الخطوة الأولى في سبيل تحقيق ذلك هي معرفة السنة الخاصة بهذا العمل أو ذلك الهدف؛ لأن القيام بأي عمل دون معرفة السنة التي يخضع لها يعد ضربا من العبث وإهدار للطاقة والوقت، وإذا عرفنا السنة علينا أن نهيئ الشروط اللازمة لنجاحه ونتلافى الموانع التي تحول دون تحقيقه[١].

وهذه هي الطريقة المثلى لتسخير الأفكار بطريقة واقعية ووضعها موضع التنفيذ العملي. وهذا هو العلم النافع الإيجابي الذي يمكن به تسخير العالم المحيط بنا تسخيرا صحيحا، والاستفادة من كنوزه وخيراته ومعطياته في تصريف شؤون الحياة، وازدهار المجتمعات، وإعمار الأرض على الوجه الشرعي الذي أمر به ا عز وجل.

وهذا هو العلم الذي يحث القرآن الكريم على تحصيله، وذلك من خلال عدد كثير من الآيات الكريمة، حيث وردت كلمة "العلم" بتصريفاتها المختلفة في القرآن الكريم، فيما يزيد عن سبعمائة وخمسين موضعا، مشفوع معظمها بالدعوى إلى التدبر والتفكر في آيات ا تعالى وسننه على هدى وبصيرة وفقه، وفق المقاييس العلمية الموضوعية المبرأة من التخرص والظن والهوى.

---

[1]- أ د كنعان: أزمتنا ا ضارية ضوء سنة ا ا لق، ص ص. ٦٦-٦٧، (بتصرف).

وفيما يلي سنعرض نماذج من السنن الاجتماعية في القرآن الكريم تبين بجلاء أن المجتمعات الإنسانية محكومة بسنن ثابتة صارمة ومطردة، وأن الناس والأمم والدول في سائر تصرفاتهم لا يخرجون عن سلطانها؛ فلا تنال أمة مرغوبها أو تسلم من مرهوبها إلا وفق هذه السنن وعلى هدى منها.

وحينما فقه المسلمون الأوائل سنن ا في الآفاق والأنفس والمجتمعات على هدى من كتاب ربهم وسنة نبيهم (ﷺ)، كان وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة والريادة، يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو الموجه له، فطاف برحابة عقله وإمعان فكره ودقة نظره آفاق السموات والأرض والأنفس نظارا باحثا يستشف الحقائق الكونية من وراء السجف، يكشفها له القرآن العظيم ويهديه لأصولها وماهياتها بأسلوب معجز، ومعان جديدة لم يسبق إليها أحد.

الفصـل الثـانـي:

سنـ ـ ـة التـغيـ ـ ـر

قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد: ١١]

__توطئة__:

لقد نشأ النبي (ﷺ) في أمة أمية غلب عليها طابع القبلية والعصبية، لا تعرف شيئا عن أساليب تغيير الواقع الاجتماعي، منغمسة في أتون الفتن والفرقة والانقسام، بل وحتى الأمم المتمدنة المجاورة للعرب كفارس والروم، لم يكونوا يعرفون شيئا عن آليات وطرق تغيير المجتمعات، معتقدين أن التغيير في العادة يأتي من القيادات إلى الشعوب، وأنه لا سلطان للمجتمعات في تغيير واقعها من سيء إلى حسن.

فجاء الكتاب العزيز بأفكار جديدة على الفكر البشري في هذا الشأن، إذ بين الله عز وجل أن تغيير الواقع يأتي من داخل المجتمعات والأقوام بتغيير ما بأنفسهم؛ فالله تعالى لا يغير واقع مجتمع أو أمة حتى يبدأوا هم فيغيروا ما بداخل أنفسهم من مفاهيم وأفكار، ويغيروا نظرتهم إلى الكون والإنسان والحياة، ويصلحوا أحوالهم، ويلملموا جمعهم، ويتعاطوا الحقوق فيما بينهم، فيغير الله تعالى آنذاك ما بهم، فيبدلهم بعد ذل وضعف قوة، وبعد شدة رخاء، وبعد فقر غنى وسعة.

كما أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بالأمم والأقوام من أمن ونعمة ورخاء حتى يغيروا ما هم متلبسون به من طاعة وإحسان؛ فلا يسلبهم نعمة أنعم بها عليهم حتى يحدثوا تغيير ما بهم من خير وهداية واستقامة إلى شرور وآثام ومنكرات: ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الأنفال: ٥٣].

سنة التغيير سنة اجتماعية نفسية

هاهنا عدة أمور ينبغي التنبه إليها:

الأمر الأول: إن السنة الموجودة في الآية الكريمة سنة عامة تنطبق على كل البشر، بدليل أن كلمة "قوم"، ومجيئها نكرة في الآية يدل على هذا[١].

الأمر الثاني: إن الآية الكريمة تبين أن هذه السنة اجتماعية لا فردية. إذا فالحديث عن قوم، عن مجتمع له خصائصه بما يشمل من الرجال والنساء، والصغار والكبار. فمضمون الآية الكريمة ليس محاسبة الأفراد، وإنما محاسبة المجتمع، وتغيير ما بالمجتمع على أساس العمل الجماعي[٢].

الأمر الثالث: إن الغاية المستفادة من "حتى" هي غاية متسعة؛ لأن المجتمعات إذا غيرت ما بأنفسها من هدى ا ، أمهلها سبحانه وتعالى زمنا، ثم أرسل إليها الرسل، ثم أمهلها مدة لتبليغ الدعوة إليها، فإذا أصرت على الكفر غير ا عز وجل نعمته عليها بإبدالها بالعذاب أو الذل أو الأسر أو نقص في الأنفس والأموال والثمرات[٣].

الأمر الرابع: ما ورد في سورة الأنفال من استبدال كلمة "ما" في سورة الرعد بكلمة "نعمة" يدل على التعميم والتخصيص؛ إذ إن كلمة "نعمة" أخص من كلمة "ما"؛ لأن كلمة "ما" تشمل النعم والنقم، بينما كلمة "نعمة" خاصة بالنعمة، لكنها مع ذلك عامة في جميع أنواع النعم، لاسيما وأنها جاءت نكرة. فكلمة "نعمة" تشمل: الصحة والقوة والغنى ونجابة الأولاد ونظافة المساكن والتماسك الاجتماعي والمحبة والمودة والإخاء والتعاون...إلخ[٤].

الأمر الخامس: إن التغيير الذي ينبغي أن يحدث أولا: هو التغيير الذي جعله ا عز وجل مهمة المجتمع وواجبهم، وإن حدوث أي تهاون في الخلط بينه وبين التغيير الذي يخص ا جل ذكره يفقد هذه السنة فعاليتها وفائدتها. والرجاء بأن يُحدث ا تعالى التغيير الذي يخصه قبل أن يقوم المجتمع بمهمة التغيير

1- جودت سعيد: حـ يغ وا ما بأنفسهم، ص. ٥١.

2- ا رجع نفسه، ص ص. ٥٩، ٦٤.

3- ابن عاشور: تفسـ التحرير والتنوير، ج. ١٠، ص. ٤٥.

4- جودت سعيد: حـ يغ وا ما بأنفسهم، ص. ٧٢ (بتصرف).

التـي أناطه ا عز وجل به، يفضي إلى إبطال دور الإنسان ومكانته ومسؤوليته، وما منحه ا سبحانه من مقام الاستخلاف في الأرض[١].

الأمر السادس: إن سلوك الإنسان وتصرفاته هي نتيجة لأفكاره، وبتعبير أدق لما بنفسه. فإذا تغير ما بنفس الإنسان سواء كان بجهده أو بجهد غيره، فإن سلوكه لا محالة يتغير. وهذا التغيير يمكن أن يصل إلى درجة النقيض، كأن يتحول الإقدام إلى إحجام أو الشجاعة إلى جبن أو السرور إلى حزن، والعكس الصحيح. فإذا تغير ما بالنفس تغير حالاً سلوك الإنسان، ولا يعود يملك سيطرة على قواه، ويخضع خضوعا كاملا لما حل بنفسه. فمن يملك القدرة على تغيير ما بالنفس يملك أن يغير ما بالقوم[٢].

ولازالت سياسة الدول في القديم والحديث ترتكز على المهارة في معرفة نفسية الشعوب والأمم وتاريخها لتكييف مواقف الأفراد والجماعات في بلوغ أهدافها. وعلى سبيل المثال، فقد ربط الغرب ضرورة الاحتلال للبلدان الإسلامية بتفوقه في معرفته لها، لا بالقوة العسكرية أو الاقتصادية بالدرجة الأولى. والمعرفة في رؤيته تعني الاستقصاء الكامل لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها ثم انحطاطها، لمعرفة نقط الضعف والقوة فيها.

شروط سنة التغيير:

- العقيدة السليمة.
- النواة الصلبة المؤثرة.
- الزمان الكافي لإنضاج عملية التغيير.
- فهم الواقع.

مـوانعهـا:

1- ا رجع نفسه، ص. ٦٧.

2- ا رجع نفسه، ص. ١١٩، ١٢٢ (بتصرف).

- الانحراف في مفاهيم العقيدة.
- الانفرادية.
- ضعف الفعالية وخمود الهمة.
- قلة الاكتراث بالوقت.

الفصـل الثـالـث

سنـــة المـداولـــــة

قال تعالى: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

المداولة مبنية على أعمال الناس

إن القرآن الكريم يطرح قاعدة أساسية في موقفه إزاء الدول والأمم والتجارب البشرية بصفة عامة، إذ بواقعيته وإحاطته المعجزة يقرر منذ البدء عدم ديمومة أي من هذه المعطيات، ولا يستثني منها الإسلام والمسلمين، إذ تقوم هذه السنة التي لا محيص عنها على أسبابها ومقدماتها في صميم الفعل الإنساني نفسه[(١)].

والآية وإن كانت تخاطب المسلمين إلا أنها استعملت كلمة الناس أي البشر كلهم، لأن هذا من السنن العامة، فلا تختص بالقوم المتحدث عنهم[(٢)].

وعلى هذا النحو فمداولة الأيام سنة من سنن الاجتماع البشري، فلا غرو أن تكون الدُولة مرة للمبطل ومرة للمحق. لكن العاقبة في نهاية المطاف للمتقين، كما جاء في حديث أبي سفيان عندما سأله هرقل ملك الروم عن قتالهم للنبي (ﷺ)

[1]- عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص. ٢٥٦.
[2]- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج. ٤، ص. ١٠٠.

فأجاب: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، فقال هرقل: وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة(١).

والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس، فلا تكون الدُولة لفريق دون آخر جزافا، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها(٢).

وفي الآية من الإيجاز والإعجاز وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ما لا يعهد مثله في غير القرآن الكريم؛ فكأنها تقول للمسلمين: إذا كانت الدُولة منوطة بالأعمال التي تفضي إليها: كالائتلاف، والثبات، وصحة النظر، وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من قوة، فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم الإحكام لتكون العاقبة لكم، ويقوم بذلك العدل ويستقر النظام(٣).

لقد كان ا تعالى يربي الجماعة المسلمة، وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية، فرباها بالابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر المؤزر. وإن يكون هذا وذاك قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن ا الجارية في النصر والهزيمة، وأنه لا محاباة في المداولة، فلتزيد هذه الجماعة طاعة   عز وجل، وتوكلا عليه، ولتأخذ كامل الأهبة لخوض المعركة: معرفة وتربية وتخطيطا وتنظيما، ولتعرف طبيعة منهج هذا الدين وتكاليفه معرفة اليقين(٤).

ارتباط المداولة بالتغيير النفسي في الأمة

وهذه السنة –مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلى الرخاء، ومن الرخاء إلى الشدة، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الهزيمة إلى النصر- نافذة بحسب ما

---

[1]- أخرجه الإمام البخاري   كتاب ا هاد والسـ ، باب ج. ٣، ص. ٢٠٥.
[2]- رشيد رضا: تفسـ ا نار، ج. ٤، ص. ١٤٨.
[3]- ا صدر نفسه، ج.٤، ص. ١٤٨.
[4]- سيد قطب: ظلال القرآن، ج. ١، ص. ٨٤١ (بتصرف).

تقتضيه سنة تغيير ما بالأنفس: ﴿ **ذلك بأن ا لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الأنفال: ٥٣].

وهاهنا يضع ا عز وجل أيدينا على سر عظيم، وهو ارتباط المداولة بين الأمم والدول والمجتمعات بالتغيير النفسي والذاتي في الأمة؛ فسقوط الحضارات ونهووضها، والأمم في ارتفاعها وهبوطها، مرتبطة بهذا التغيير النفسي في مسارها عبر التاريخ والحاضر والمستقبل، وهي سنة ماضية ثابتة، لا تتبدل ولا تتحول.

يقول رشيد رضا –رحمه ا - في تفسيره: "... إن أنعم ا تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فمادامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها، كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم ينتزعها منهم انتزاعا بغير ظلم ولا ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غير ا عندئذ ما بأنفسهم وسلب نعمته منهم"[(١)].

وسلب النعم يكون بالإدالة عليهم؛ بتسليط عدو عليهم يستأصل شأفتهم، ويكون ذلك سببا في انهيارهم وزوال ملكهم جزاء فسقهم وعصيانهم.

ومن أسباب الفتن وزوال النعم أن يفشو فيهم الظلم، وعدم إقامة العدل، والجهر بالمعاصي، فيأخذهم ا عز وجل بالسنين وشدة المؤنة، ويبتليهم بالأمراض والفقر، ويجعل بأسهم بينهم.

أخرج ابن ماجه بسنده إلى عبد ا بن عمر (رضي ا عنهما) قال: إن رسول ا (ﷺ) أقبل علينا بوجهه فقال: "يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ با أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا خفر قوم العهد إلا سلط ا عليهم عدوا

[1]- رشيد رضا: تفسـ ا نار، ج. ١٠، ص. ٤٢.

من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل ا في كتابه إلا جعل ا بأسهم بينهم"[١].

هكذا عمل السنن، ما فعل قوم كذا إلا أصيبوا بكذا. إذا فكل ما يصيب العباد من المصائب والنكبات كالفتن والأمراض والجدب والحروب وظلم الحكام فهو نتيجة أعمالهم، إذ هو عقوبة طبيعية لما كسبت أيديهم.

المداولة وسيلة للتجدد وتحريك الفعل التاريخي

قد تكون الإدالة على المسلمين بتخلف النصر عنهم حين يتركون طاعة الرسول (ﷺ) أو يطمعون في الغنيمة – كما حدث في غزوة أحد – أو حين يركنون لكثرة العدد ويعجبون بأنفسهم وينسون سندهم الأصيل – كما وقع في غزوة حنين –. وحينئذ تكون الدُولة والغلبة لغيرهم بصفة مؤقتة لحكمة هي: استكمال حقيقة الإيمان ومقتضاه من الأعمال، ومتى تحقق ذلك جاء النصر.

ويطرح القرآن الكريم سنة المداولة كفعل ديناميكي يستهدف تمحيص الجماعات البشرية، وإثارة التنافس والتدافع بينها لمصلحة الإنسانية في خضم المواجهة بين الحق والباطل، الأمر الذي يتمخض عنه تحريك الفعل، وخلق التحديات المستمرة أمام المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك، مما يوحي بالحركة الدائمة، وبالتجديد، وبالأمل، تقريرا أن الأيام ليست ملكا لأحد، ومن ثم لا داعي لليأس والهزيمة. فمن في القمة الآن ستنزل بهم حركة "الأيام" إلى الحضيض، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها – من خلال فعلهم الحر وحركتهم الدائبة – إلى القمة[٢].

---

[1]- أخرجه ابن ماجه السنن، رقم ٤٠٣٩، ج. ٢، ص. ١٣٣٢. وا اكم ا ستدرك وقال صحيح الإسناد ووافقه الذه ، ج. ٤، ص. ٥٤٠، وأورده الألبا السلسلة الصحيحة، ج. ١، ص. ١٦٧.

[2]- عماد الدين خليل، التفس الإسلامي للتاريخ، ص. ٢٥٩ (بتصرف).

إن المداولة القرآنية سنة جارية إيجابية في صيرورتها: حركة دائبة، وصراع فعال، واستمرار الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان حين يكون مشدودا إلى عقيدة، منصهرا بقوة الإيمان: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي هذا إيقاظ للضمائر المؤمنة الحية لتشمر عن ساعد الجد، وتسعى لاحتواء الأوضاع لصالحها؛ لأن طبيعة الإنسان كلما كان ذا إرادة أقوى، وعزيمة أمضى، وإيمان أعمق، وجهد وإبداع أشد تركيزا، أتيح له أن يقفز قفزات هائلة لارتياد مزيد من المجاهيل في الطبيعة والعالم، حيث توصي حركية المداولة بالتجديد واليقظة والفاعلية التي ترفض السكون والجمود، الأمر الذي ينتج عن تحريك الفعل التاريخي، والانطلاق نحو الوعي الحضاري الإيجابي الذي يمكّن من استعادة الذاتية الحضارية والمحافظة عليها من الاضمحلال والسقوط[١].

ولكن ينبغي أن يعرف بأن المداولة في الواقع مبنية على أعمال الفريقين المتصارعين، فتكون الغلبة لمن أدرك قانونها، وعرف أسبابها، ورعاها حق رعايتها. فإذا كانت المداولة في النصر والغلبة بين الفريقين منوطة بالأعمال التي تفضي إليها: كالاجتماع والألفة والوحدة وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يقدر عليه من القوة، فعلى المؤمنين أن يقوموا بهذه الأعمال ونحوها من مستلزمات الغلبة والنصر حتى تكون المداولة لهم ويحسم التدافع لصالحهم[٢].

شروط السنة

- إدراك وفقه الواقع الإقليمي والعالمي.
- الاستعلاء بالإيمان.
- الألفة والوحدة والاجتماع على الحق.

---

[1] رجع نفسه، ص ص. ٢٥٦-٢٥٩ (بتصرف).

[2] - رشيد رضا: ا صدر السابق، ج. ٤، ص. ١٤٨.

- تجدد المجتمع.
- رفع راية الإسلام لتكون كلمة ا   هي العليا في الأرض.

مـوانعهـا

- الركود الحضاري.
- الأزمة القيمية.
- التفكك الاجتماعي.
- ضعف التفكير السبـبـي.
- العجز والشعور بالدونية وعدم بعد النظر.

الفصـــل الرابـــع

سنـــة التـــدافـــــع

قال تعالى: ﴿**ولولا دفع ا الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن ا ذو فضل على العالمين**﴾ [البقرة: ٢٥١].

التدافع صور متعددة تمنع الفساد في الأرض

جاء في لسان العرب: "الدفع" الإزالة بالقوة[1]. وفي المعجم الوسيط: "دفع الشيء إذا نحاه وأزاله بقوة"[2]. والتدافع بين الحق والباطل هو تنحية أحدهما للآخر أو إزالته بالقوة عند الاقتضاء[3].

لكن هذا المعنى يمثل الصورة الأخيرة للتدافع التي تأتي بعد سلسلة من المراحل، إذ يحتمل التدافع عدة معان: فهو وسيلة للحيوية والحركة والنمو وانطلاق الطاقات. وله صوره ودرجاته المتعددة بداية من الحوار ومرورا بالجدل والمناظرة والمنافسة والسباق والمواجهة والمغالبة وانتهاء بالصراع أو القتال. وكل هذه الصور مشروعة، كما أنها في نفس الوقت محكومة بضوابط من شرع ا [4]. علما بأن المدافعة التي تبني ولا تهدم تشكل حجر الزاوية في تقدم الإنسانية وبقائها.

ويشير صاحب الظلال –رحمه ا - إلى أن مساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة التي تمسك بالخيوط جميعا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف. لقد كانت الحياة

1- ابن منظور: لسان العرب، ج. ٩، ص. ٤٤١.

2- ا عجم الوسيط، ج. ١، ص. ٢٨٩.

3- عبد الكر زيدان: السنن الإ ية، ص. ٤٥.

4- دي قرقر: التدافع ا ضاري بديلا عن الصراع، لة ا نار ا ديدة، عدد ١٧، ص. ٦٢.

كلها تأسن وتتعفن لولا دفع ا الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم ا عز وجل عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها وتتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول... مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء[1]... فإن ا لذو فضل على العالمين.

الحديد وسيلة للتدافع في السلم والحرب

منذ خمسة عشر قرنا بين القرآن أهمية الحديد القصوى في الحرب والسلم معا، بينما لم يكن للحديد في ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن الكريم هذه الأهمية التي له في عصرنا، بسبب الاستعمال الواسع له في مختلف القطاعات الحيوية، حتى غدا وسيلة استراتيجية في ميادين القوى الدولية سلما وحربا.

ذلك أن الدول المعاصرة التي تملك هذا الخام الخطير بمقدورها إرهاب أعدائها بما يتيحه لها من مقدرة على التسلح الثقيل، كما أنه أصبح العمود الفقري للتقدم في ميادين السلم والصناعات المدنية[2]:﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**﴾ [الحديد: ٢٥].

وتكاد الحضارة المعاصرة تقوم على الحديد، مما يبرز أن ا تعالى الذي نزل هذا الكتاب المعجز في بيانه وفي دلالاته ومعانيه محيط بكل شيء، بما كان وبما سيكون، وأنه ليس في مقدور بشر مهما توقد ذكاء وكان ألمعيا أن يتنبأ بهذا الأمر، فضلا عن أن يحيط به.

ألم تؤكد سورة الحديد اعتماد هذا الخام الخطير في ميادين الحرب والسلم دونما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغه، ليبقى الإنسان حرا طليقا بتحريكه القوى والطاقات الممنوحة، واستغلال حواسه في مجال البحث والنظر والتأمل

1- سيد قطب: ا صدر السابق، ج. ١، ص. ٢٧٠.

2- إبراهيم الوزير: دراسة للسنن الإ ية، ص ص. ١٢٠-١٢١.

والمعرفة والتجريب، وفتحه هذه النوافذ على مصراعيها لاستغلال قدرته الفذة حتى النهاية !؟ (١).

وهل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض واستغلال ذخائرها وكنوزها من تسمية سورة كاملة باسم خام من أخطر وأهم خاماتها!؟ (٢).

وهل ثمة أكثر بيانا لنزعة التحضر والإبداع والبناء التي جاء القرآن العظيم ليجعلها جزءا رئيسا من أخلاقيات هذا الدين وسلوكيته في صميم العالم، من هذه الآية الكريمة التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها ا تعالى لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوما من الحديد: "البأس الشديد" تمثلا باستخدام الحديد كأساسات للتسلح والإعداد العسكري، و"المنافع" التي يمكن أن ينتفع بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه المدني(٣) !؟

أدوات ووسائل التدافع

وجدير بالإشارة أن للتدافع أدوات ووسائل من لا يستعملها يخر صريعا؛ فكل من يريد أن يبني مجتمعا أيا كان هذا المجتمع وأيا كان مثله الأعلى، إن لم يسر على السنة الربانية، وإن لم يعرف شروطها وموانعها، فلن يتمكن من إقامة مجتمع، ولن يتمكن من بناء حضارة، ولن يتمكن من حماية كيانه من غوائل الأعداء.

فسنة عداوة الأشرار للأخيار هي ما يعبر عنه علماء الاجتماع "بقانون تنازع البقاء بين المتقابلات أو الأضداد"، وهو ما يفضي بالتدافع والجهاد والتمحيص إلى ما يسمونه قانون "الانتخاب الطبيعي" أي انتصار الأقوى وبقاء الأصلح. وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم "الحق" و"النافع" كما في قوله تعالى:

---

[1]- ا رجع نفسه، ص. ١٢٠.

[2]- ا رجع نفسه، ص. ١٢٠.

[3]- ا رجع نفسه، ص. ١٢٠.

﴿**كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ [الرعد: ١٧] [1].

ولكن -للأسف- فإن أكثر المسلمين في هذا العصر يجهلون هذه السنة الحكيمة وشروطها وموانعها، ويشتبه عليهم فهمها وتطبيقها على أنفسهم ظانين أن مجرد تسميتهم مسلمين كاف لينزل عليهم نصر الله، وإن خالفوا سنته بانحرافهم عن منهج القرآن وشريعته، وكسلهم وفرقتهم، وترك مصدر القوة من: المعرفة والإعداد والوحدة والتخطيط والنظام والإبداع، وغير ذلك من العوامل التي تحقق كمال الاستعداد لتوظيف هذه السنة على أكمل وجه.

شروط السنة

- بناء المعرفة.
- بناء القوة.
- وضوح الأهداف الكبرى.
- التصميم على محاربة الرذيلة والفساد في الأرض.
- بسط لواء العدل والفضيلة.

مـوانعهـا

- افتقاد القيادة القوية الرشيدة.
- الاختلاف والفرقة.
- مقاومة التغيير.
- إلف حياة الاسترخاء والترهل.
- فقدان الثقة بالنفس.

[1]- رشيد رضا: تفسير المنار، ج. ٢، ص. ٤٩٧، ج. ١٠، ص، ١٣٧.

الفصـــل الخـامـــس

سنـــة التضاد

قال تعالى: ﴿**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**﴾[ص: ٢٨]

التفرقة بين المصلحين والمفسدين

المراد بالأضداد المختلفين في المعاني والأوصاف التي هي مناط الأحكام أو التي تستوجب نتائج معينة حسب سنن ا تعالى العامة[١].

وا عز وجل، كما يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة فيحكم في الشيء خلقا وأمرا بحكم مثله، فإنه يفرق كذلك بين الأمور المتضادة المختلفة، فلا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسو بينهما[٢].

ولذلك قال جل ذكره: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور*ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات**﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

ووجه الإعجاز في هذه السنة أن ا تعالى بين أن هناك صلة بين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت. كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة[٣].

فالإيمان ظل ظليل تستروحه النفس، ويرتاح له القلب، وهو حياة في القلوب والمشاعر، وفي القصد والاتجاه، وبصيرة ترى الأشياء على حقيقتها رؤية صادقة غير مضطربة، وهو نور ينير درب السالكين إلى ا عز وجل. وأما

1- عبد الكر زيدان: السنن الإ ية، ص. ١٦٣.

2- ابن تيمية: موعة الفتاوى، ج. ١٣، ص. ١٩.

3- سيد قطب: ظلال القرآن، ج. ٥، ص. ٢٩٣٩ (بتصرف).

الكفر، فهو عمى في البصر والبصيرة، وظلمة تعز فيها الرؤية الصحيحة، وهاجرة تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على طريق، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير، بل هو موت في الضمير وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل[١].

وهذه الأمور يدركها بفضل الهداية الربانية ونور الوحي كل من له بصيرة إيمانية ورجاحة عقل، يكشف بها حقائق الأشياء والقيم والأحداث، ويرى بنور ا تعالى حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه، والنسب بين مختلف أبعاده.

العبرة بالحكم على ماهية الأشياء لا على مظهرها

والمراد بهذه السنة أيضا: بيان قيمة العباد في ميزان ا تعالى، ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح، وضياع سعي الكافرين وإن كان خيرا؛ بتقديمهم أعمالا حسنة بذاتها أو نافعة للناس، لكنها لا تقوى على محو جريمة كفرهم وتمردهم على ا تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا**﴾ [الفرقان: ٢٣].

فلا يمكن إذن أن يساوى الكافر بالمؤمن الذي عنده الإيمان با تعالى، وإن لم يتيسر أن يعمل خيرا كثيرا، فيبقى المؤمن ومعه حسنة الإيمان أرجح دائما من الكافر وإن عمل شيئا حسنا مادام بقي كافرا. فلا مساواة دائما وفي جميع الأحوال بين النقيضين[٢].

على أن السنة العامة في الاختلاف في النتائج والأحكام تفضي إلى أن المختلفين بالمعنى الذي تم بيانه آنفا يختلفون في النتائج والأحكام في الدنيا

1- ا رجع نفسه، ج. ٥، ص. ٢٩٣٩.
2- عبد الكر زيدان: السنن الإ ية، ص. ١٧٥.

والآخرة، لاختلافهم في المعاني والأوصاف التي نيطت بها هذه النتائج والأحكام أو استوجبتها[١].

فالعبرة بالحكم على ماهية الأشياء، إذ تنتفي في سنة ا تعالى المساواة بين الأنواع المتضادة المختلفة: الخبيث والطيب من الأشياء والأعمال والأموال، والفاسد والصالح، والحلال والحرام، ولا يستوي الخبيث والطيب من الناس كالظالم والعادل، والمفسد والمصلح، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلكل حكم يجري عليه ويناسبه؛ إذ العبرة بصفة الشيء وما هو عليه من خبث أو طيب، ولا قيمة في ميزان ا لمظهره أو شكله، فلا يغتر الإنسان العاقل المعتبر بكثرة المال الخبيث، ولا بكثرة أهل الباطل والفساد، فالعاقبة للتقوى، والبقاء للأصلح: ﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا ا يا أولي الألباب لعلكم تفلحون**﴾ [المائدة: ١٠٠].

شروط السنة

- العبرة بالحكم على ماهية الأشياء لا مظهرها.
- معرفة قيمة العبد في ميزان ا تعالى.
- اختلاف أحكام المؤمن والكافر في الدنيا والآخرة لاختلافهم في المعاني والأوصاف.
- رجحان كفة أصحاب العمل الصالح في الدنيا والآخرة.

مـ وانعهـا

- عدم التفرقة بين المسيئين والمحسنين.
- جعل الكفار المفسدين أكفاء للمؤمنين الكافرين.

---

[1]- ا رجع نفسه، ص. ١٦٣.

- اتباع الهوى والتخرص والظن في الحكم على الناس والأشياء بعيدا عن شريعة ا تعالى.
- المساواة في الحكم بين الأنواع المتضادة والمختلفة.

الفصـــل الســادس

سنــة التماثــل

قال تعالى: ﴿**إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾[الأعراف: ٢٧]

وقال تعالى: ﴿**تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يعقلون**﴾[البقرة: ١١٨]

من المعلوم أن التماثل في تعريف علماء الاجتماع الغربيين هو: تغيير السلوك حتى يتناسق مع سلوك آخر[١]. وله علاقة بعلم النفس الاجتماعي، وهو تخصص بلغ شأوا بعيدا في الغرب بتحليله للظواهر الاجتماعية، وكشفه عن أسبابها والعوامل المؤثرة فيها.

ومع أن هذا العلم معاصر، رسخ في الغرب بفعل التجارب المختبرية والدراسات الميدانية، فإن القرآن الكريم الذي نزل على محمد (ﷺ) النبي الأمي الذي نشأ في أمة أمية، يتحدث عن هذه الظاهرة الاجتماعية منذ خمسة عشر قرنا.

التماثل في الطباع يؤدي إلى التفاعل في السلوك

التماثل في القرآن الكريم والسنة الشريفة هو إنتاج سلوك مشابه لمصدر التأثير سواء كان هذا المصدر شيطاناً، أو سلطةً، أو مجتمعاً. وهو سلوك اختياري يحظى بالموافقة والرضا والرغبة، لأن المتماثلين عادة تتشابه قلوبهم في التصور والتركيبة النفسية، ولديهم إن كانوا من أهل البشر قابلية للشر والفساد.

وسنته تعالى ها هنا عادته التي يسوي فيها بين الشيء و نظيره الحاضر أو الماضي الذي وقع قبله. وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة. ولهذا قال تعالى: ﴿**أكفاركم خير من أولئكم**﴾ [الرحمن: ٤٣]، وقال جل ثناؤه: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم**﴾ [الصافات: ٢٢]، أي أشباههم ونظائرهم[٢].

وفي الحديث الشريف: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قلنا: يا رسول ا ! اليهود والنصارى، قال: فمن!". وفي رواية أخرى: "لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ

---

[1]- كنيث جرج : علم النفس الاجتماعي، ص. ٤٥٨. وجون ليف ومارك بافلشاك: التماثل والإذعان، ص. ٢٦. ضمن كتاب علم النفس الاجتماعي، بإشراف ونشر س ج موسكو فيشي باريس عام ١٩٨٤م، والكتابان باللغة الفرنسية.

[2]- ابن تيمية: موع الفتاوى،باب ج. ١٣، ص. ١٩ وما بعدها.

القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، فقيل يا رسول ا ؛ كفارس والروم، فقال ومن الناس إلا أولئك؟!"[(١)].

وقد جرت سنته تعالى في التناسب بين أنواع المخلوقات المتجانسة والمتشاكلة: أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس، وهم الكفار الذين لا يؤمنون با عز وجل وملائكته وكتبه ورسله. كما مضت سنته تعالى أن جبل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين. فكلما كانت المشابهة أكثر في النفوس، فإن التفاعل في الأخلاق والصفات يكون أتم.

ولما كان من جبلة الشياطين حب ما هو فساد، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنه قد يلابس الأمر العائد بالفساد إذا كان له فيه عاجل شهوة أو شبهة، كان الإنسان في هذه الحالة موافقا لطبع الشياطين ومؤتمرا بما تزينه له، ثم يغلب كسب الفساد والشر على الذين توغلوا فيه وتدرجوا إليه، حتى صار المالك لإرادتهم. وتلك مرتبة المشركين والكافرين، إذ نشأت بينهم وبين الشياطين مماثلة ومشالكة مآلها ولاية ووفاق لتقارب الدواعي والاستعدادات، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلة ﴿**بعضكم لبعض عدو**﴾ [الأعراف: ٢٤]، فصارت ولاية ومحبة عند بلوغ بني آدم آخر دركات الفساد، وهو الشرك والكفر وما يترتب عليهما عياذا با [(٢)].

لدى شياطين الإنس والجن قابلية لتبادل الإيحاءات الشريرة

وعبارة: "إنا جعلنا الشياطين"، وإسنادها إلى ا تعالى لا يقتضي أنه جعل هذا الأمر خارجا عن نظام الأسباب والمسببات، ونتائج الأعمال الاختيارية التي تسند إلى مكتسبيها باعتبار صدورها منهم، بدليل أنه تعالى ربط السبب بمسببه، وأسند الولاية إلى مكتسبيها بمزاولة أسبابها في قوله في السياق نفسه: "إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون ا ويحسبون أنهم مهتدون"[(٣)].

فاكتساب الكفار لولاية الشياطين –وفقا لهذه السنة- يرجع إلى استعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم، وعدم احتراسهم من الخواطر الباطلة أو الشريرة التي تلم بهم، كاكتساب ضعفاء البنية للأمراض باستعدادهم لها، وعدم احتراسهم من

---

[1]- أخرجه البخاري كتاب الاعتصام، ج. ٨، ص. ١٥١.

[2]- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج. ٨، ص ص. ٨٠-٨١. تفسير الآية ٣٠ من سورة الأعراف

[3]- رشيد رضا: تفسير المنار، ج. ٨، ص. ٣٧١.

أسبابها وعللها، كالقذارة وتناول الأطعمة أو الأشربة الفاسدة أو القابلة للفساد، لما فيها من جراثيم تلك الأمراض(١).

بل إن الانسجام والتجاذب بين شياطين الإنس والجن يحصل لما يحدث بينهم من الإيحاءات المتبادلة في تلبيس الحقائق ورفع الشعارات الخادعة لإغواء عامة الناس: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا**﴾ [الأنعام: ١١٢].

إن هذه السنة وما ينطوي فيها من: مشاكلة ومشابهة الشياطين، واتخاذهم أولياء، والإصرار على الضلال، وعدم تأثير دلائل الإيمان وموجبات الهدى في الألباب هي مقدمات للتجانس بين شياطين الإنس والجن، ثم يأتي الطبع على قلوب الذين لا يؤمنون نتيجة حتمية، إذ صار الكفر صفة لازمة لهم: ﴿**كذلك يطبع ا على قلوب الكافرين**﴾ [الأعراف: ١٠١].

وعلى هذا النحو؛ بحسب سنة ا في أخلاق البشر وشؤونهم، فالذين أنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على مشاعرهم، ويملأ حب شهواته جوانب قلوبهم، لا يقبلون فيه بحثا، ولا يسمعون فيه نقدا، فيكون كالسكة التي طبعت في أثناء لين معدنها بصهره وإذابته ثم جمدت، فلا تقبل نقشا آخر(٢).

شروط السنة

- التجانس والتجاذب في الأفكار والتصورات.
- التشابه في التركيبة النفسية.
- التفاعل في الأخلاق والصفات والمواقف.

[1] - ا صدر نفسه، ج. ٨، ص. ٣٧٢.
[2] - ا صدر نفسه، ج. ٩، ص. ٢٩.

مـ وانعهـا

- عدم اتخاذ أولياء من دون ا تعالى.
- تفعيل مفهوم البراء اعتقادا وعملا.
- الاحتراس من الخواطر الباطلة والأفكار الهدامة.
- الاعتصام با تعالى وكتابه وسنة نبيه (ﷺ).

الخـــاتمــــة

إن السنن عادات الله تعالى وكلماته التي لا مبدل لها في الكون، وهي مستخلصة من سلوك الظواهر نفسها المتسمة بالاطراد والشمول والثبات والصرامة.

فالقرآن الكريم يحدد سياقات اجتماعية واقعية في إطار القصص القرآني ليستخلص بعد ذلك سننا عامة وخاصة تنطبق على جميع المجتمعات البشرية. ومن خلالها يحدد منهجا للنظر والاستقراء والاستدلال تحليلا علميا موضوعيا، عبر الماضي والحاضر والمستقبل.

وهذه المعالجة الشاملة دليل على الإحاطة المعجزة بكل جوانب الوجود.

إن السنن بصفة عامة سواء كانت كونية (طبيعية) أو بشرية (تاريخية، اجتماعية) لها خصائصها، أي أنها ربانية المصدر، شاملة، ثابتة، مطردة، صارمة، متنوعة. كما أنها مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية متسلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض، حيث تتماسك في اتساق وترتيب محكم، لتكون في النهاية نظاما متناسقا بديعا.

وفي ضوء ما سبق نستخلص أن معرفة نظام السنن بصورة صحيحة من خلال نصوص الكتاب والسنة هو الطريق الوحيد المأمون إلى:

*الإيمان بعلم الله تعالى الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص.

*إدراك أن الزمان هو الوعاء الذي تعمل فيه السنن. ونظرا لديمومتها وثباتها واطرادها، فهي بذلك تستغرق حياة البشرية كلها؛ في الماضي والحاضر والمستقبل إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. وهي بتجسيرها للعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، جعلت في إمكان الإنسان أن يعرف المسببات من خلال الوقوف على الأسباب، ويستخلص النتائج من خلال رؤية المقدمات، أي

جعلت الأزمنة كتلة واحدة، فأمنت بذلك نوعا من التواصل عبر حقب الزمان المختلفة. ولا يقدر على هذه الإحاطة الشاملة إلا ا تعالى العليم الخبير، المحيط بكل شيء.

*فهم وتدبر نصوص الوحي التي كشفت عن سنن ا الشاملة المحيطة بكل الظواهر الاجتماعية والتاريخية والطبيعية بأسلوب بديع وبيان رائع، حيث نرى حشد معان كثيفة في عبارات مركزة جامعة، مما يوحي بالإعجاز على مستوى اللفظ والمعنى معا.

*تحديد موقع الإنسان في هذا الوجود ودوره وقيمته بين مكوناته.

*رد كل حادثة وكل ظاهرة إلى سببها الطبيعي الشرعي.

*إبراز حكمة ا تعالى من وراء خلق هذا الوجود، وجدية الحياة وخلوها من العبث، وثبات سننها وصرامتها واطرادها. فهي ماضية في جميع الأمم والدول، لا تستطيع أمة أن تفلت من سلطانها أو تستثنى منها دولة.

*تفسير حركة المجتمعات الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل تفسيرا صحيحا.

ولهذا ينبغي:

١-إعادة تقويم الدراسات (الاجتماعية والتاريخية والنفسية) في ضوء علم السنن، انطلاقا من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

٢-إبراز هذه السنن أمام مجتمعات المسلمين، وتضمينها الخطاب الدعوى الموجه لهم، لأنه لا يمكن تسخير دخائر الكون والإفادة منها، وتصويب فاعل وعاقل المجتمع، إلا وفق السنن.

٣-الاستفادة منها في رسم برامج التغيير والإصلاح، وأخذها بعين الاعتبار والسير وفقها.

٤-التركيز في معارفنا العامة على الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية والتربوية، وهي علوم مساعدة تمكننا من استجلاء وكشف أكبر عدد ممكن من سنن ا في الأنفس والمجتمعات وتوظيفها في التنمية على كافة الصعد.

٥-بلورة مناهج للعمل في المؤسسات الإسلامية تتناسب مع نظام السنن في أساليبها وأدواتها.

٦-تربية الناشئة (تلاميذ وطلابا) على التفكير السنني ليتعودوا على التفكير العلمي الموضوعي، فيميزوا بين المقدمات والنتائج ويروا سلسلة التغيرات المتصلة بينها، ويرصدوا الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها، مما يجعل أحكامهم أقرب للواقع والموضوعية.

٧-إجراء تقويم سنني للأحداث الكبرى في التاريخ الإنساني وفي تاريخنا الإسلامي والمعالم البارزة في واقعنا المعاش، بناء على السنن الواردة في القرآن الكريم، لتتفاعل النظرية مع التطبيق.

٨-القيام بدراسات علمية مستقبلية تعتمد على ما فقهناه من سنن ا في حركة المفرد والمجتمع.

وا تعالى الموفق والهادي إلى السبيل.

فهرس المصادر والمراجع

- ابن الأثير المؤرخ، علي بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
  - الكامل في التاريخ.
- الألباني، ناصر
  - سلسلة الأحاديث الصحيحة، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- البخاري (الإمام)، أبو عبد ا محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م).
  - لجامع الصحيح، استانبول: مؤسسة إليف أوفست، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

بافلشاك، مارك
  - التماثل والإذعان، ضمن كتاب علم النفس الاجتماعي، نشر سيرج موسكوفيسي، باريس، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م (باللغة الفرنسية).
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)
  - جامع الرسائل والمسائل، تحقيق محمد رشاد سالم، القاهرة: مطبعة المدني،؟.
  - مجموع الفتاوى، طبع تحت إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، مكة المكرمة،؟.
- جرجين، كنيث
  - علم النفس الاجتماعي، ترجمه من الإنجليزية إلى الفرنسية سلفي جوتراس، الناشر: الدراسات الحية، سان لوران، كيبيك، كندا، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن حمدويه (ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م)
  - المستدرك على الصحيحين، تحقيق يوسف المرعشي، بيروت: دار الفكر،؟.
- خليل عماد الدين
  - التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- رضا رشيد
  - تفسير المنار، بيروت: دار المعرفة،؟.
- زيدان عبد الكريم
  - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
  - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بغداد: مكتبة المثنى، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
- سعيد، جودت
  - حتى يغيروا ما بأنفسهم، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- السلمي ، محمد بن صامل

- كيف نفسر التاريخ؟ مجلة البيان، عدد ٥٠، شوال ١٤١٢هـ/أبريل ١٩٩٢م.
- الصدر، محمد باقر
- السنن التاريخية في القرآن الكريم، أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره محمد جعفر شمس الدين، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر
- تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر،؟.
- قرقر، محمد
- التدافع الحضاري بديلا عن الصراع، مجلة المنار الجديدة، عدد ١٧، شوال ١٤٢٢هـ/يناير ٢٠٠٢م.
- قطب، سيد
- في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد ا محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م).
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الفكر، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- كاريل، ألكسيس
- الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، بيروت: مؤسسة المعارف،
- كنعان، أحمد
- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة ا في الخلق، كتاب الأمة، عدد ٢٦، الدوحة، قطر، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ابن ماجه، أبو عبد ا محمد بن يازيد القزويني (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م)
- السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر،
- المصري، محمد عبد الهادي
- أهل السنة والجماعة: الانطلاقة الكبرى، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري المصري (ت ٧١١هـ/١٣١١م)
- لسان العرب، إعداد يوسف خياط، بيروت: دار لسان العرب،؟.
- الوزير، إبراهيم
- دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.